٣ ـ سارة امرأة إبراهيم عليه السلام

كان خليل الرحمٰن «إبراهيم» عليه السلام ابناً لرجل ينجُر الأصنام، ويبيعها للناس ليعبدوها من دون الله، وقد اختلف في نسبه بين كتاب السير.

فقد ذكر ابن جرير الطبري أنه: إبراهيم بن تارخ بن ناحور بن ساروغ بن أرغوا بن فالغ بن عابر بن شالخ بن قينان بن أرفَخْشَد بن سام بن نوح عليه السلام(١)، وفي القرآن الكريم ورد أن اسم أبيه هو «آزر».

أما الحافظ ابن كثير فقد ذكر في البداية والنهاية أنه: إبراهيم بن تارخ بن ناحور، بن ساروغ بن أرعو بن فالغ بن عابر بن شالح بن أرفخشذ بن سام بن نوح عليه السلام(٢).

وتابع ابن كثير القول: وروى ابن عساكر من غير وجه، عن عكرمة أنه قال: كان «إبراهيم» عليه السلام يكنى «أبا الضيفان»، قالوا: ولما كان عمر «تارخ» خمساً وسبعين سنة، ولد له «إبراهيم» عليه السلام، وناحور، و«هاران»، وولد لهاران «لوط»، وعندهم أن «إبراهيم» عليه السلام هو الأوسط، وأن «هاران» مات في حياة أبيه في أرضه التي ولد فيها، وهي أرض الكلدانيين يعنون أرض بابل.

وهذا هو الصحيح المشهور عند أهل السير والتواريخ والأخبار، وصحح ذلك الحافظ ابن عساكر بعد ما روى من طريق هشام بن عمار، عن الوليد، عن سعيد بن عبد العزيز، عن مكحول، عن ابن عباس، قال: ولد «إبراهيم» عليه السلام بغوطة دمشق في قرية يقال لها «برزة» في جبل يقال له: «قاسيون»، ثم قال: والصحيح أنه ولد ببابل، وإنما نسب إليه هذا المقام لأنه صلى فيه، إذ جاء معيناً للوط عليه السلام، قالوا: فتزوج «إبراهيم»، «سارة»، و«ناحور»، «مَلْكَا ابنَة هاران»

---

(١) تاريخ الطبري (١/ ٢٣٣).

(٢) البداية والنهاية (١/ ١٥٦).

obeikandl.com

ـ يعنون بابنة أخيه ـ .

قالوا: وكانت «سارة» عاقراً لا تلد.

قالوا: وانطلق «تارخ» بابنه «إبراهيم» وامرأته «سارة» وابن أخيه «لوط بن هاران»، فخرج بهم من أرض الكلدانيين إلى أرض الكنعانيين، فنزلوا «حَرَّان» فمات فيها «تارخ» وله مائتان وخمسون سنة، وهذا يدل على أنه لم يولد بحَرَّان وإنما مولده بأرض الكلدانيين، وهي أرض بابل، وما والاها، ثم ارتحلوا قاصدين أرض الكنعانيين، وهي بلاد بيت المقدس، فأقاموا بحران، وهي أرض الكلدانيين في ذلك الزمان، وكذلك أرض الجزيرة والشام أيضاً، وكانوا يعبدون الكواكب السبعة، والذين عمروا مدينة دمشق كانوا على هذا الدين يستقبلون القطب الشمالي، ويعبدون الكواكب السبعة، بأنواع من الفعال والمقال، ولهذا كان على كل باب من أبواب دمشق السبعة القديمة هيكل لكوكب منها، ويعملون لها أعياداً وقرابين.

وهكذا كان أهل «حَرَّان» يعبدون الكواكب والأصنام، وكل من كان على وجه الأرض كانوا كفاراً سوى «إبراهيم الخليل» وامرأته، وابن أخيه «لوط» عليهما السلام.

وكان الخليل عليه السلام هو الذي أزال الله به تلك الشرور، وأبطل به ذاك الضلال، فإن الله سبحانه وتعالى آتاه رشده في صغره، وابتعثه رسولاً، واتخذه خليلاً في كبره، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ۝٥١﴾ [الأنبياء، الآية: ٥١]، أي: كان أهلاً لذلك[(١)].

وقال الطبري في تاريخه: عن ابن إسحاق: فلما أراد الله عز وجل أن يبعث «إبراهيم» عليه السلام خليل الرحمٰن، حجة على قومه، ورسولاً إلى عباده، ولم يكن فيما بين «نوح» و«إبراهيم» عليهما السلام من نبي قبله إلَّا «هود» و«صالح»، فلما تقارب زمان «إبراهيم» الذي أراد الله تعالى ذِكْرُه ما أراد. أتى أصحابُ النجوم «نمرود»[(٢)]، فقالوا له: تَعَلَّمْ أنا نجد في علمنا أن غلاماً يولد في قريتك هذه يقال

(١) البداية والنهاية (١/١٥٧).

(٢) نمرود: بالدال وفي بعض المصادر بالذال المنقوطة.

له «إبراهيم»، يفارق دينكم، ويكسر أوثانكم، في شهر كذا وكذا من سنة كذا وكذا.

فلما دخلت السنة التي وصف أصحاب النجوم لنمرود، بعث «نمرود» إلى كل امرأة حُبْلَى بقريته، فحبسها عنده، إلا ما كان من «أم إبراهيم» امرأة «آزر» فإنه لم يعلم بحبلها، وذلك أنها كانت جارية ـ حدثة فيما يذكر ـ لم يعرف الحبل في بطنها، فجعل لا تلد امرأة غلاماً في ذلك الشهر من تلك السنة إلا أمر به فذُبح، فلما وجدت «أم إبراهيم» الطَّلْق، خرجت ليلاً إلى مغارة كانت قريباً منها، فولدت فيها «إبراهيم» عليه السلام، وأصلحت من شأنه ما يُصْنَع بالمولود، ثم سَوَّت عليه المغارة، ثم رجعت إلى بيتها، ثم كانت تطالعه في المغارة لتنظر ما فعل، فتجده حيًّا يمصُّ إبهامه، يزعمون ـ والله أعلم ـ أن الله جعل رزق «إبراهيم» عليه السلام فيها ما يجيئه من مصه.

وكان «آزر» فيما يزعمون قد سأل «أم إبراهيم» عن حملها ما فعل، فقالت: ولدت غلاماً فمات، فصدقها، فسكت عنها، وكان اليوم ـ فيما يذكرون ـ على «إبراهيم» في الشباب كالشهر، والشهر كالسنة، ولم يمكث «إبراهيم» عليه السلام في المغارة إلَّا خمسة عشر شهراً، حتى قال لأمه: أخرجيني أنظر، فأخرجته عشاء، فنظر وتفكر في خلق السماوات والأرض، وقال: إن الذي خلقني ورزقني وأطعمني وسقاني لَرَبيِّ، ما لي إله غيره.

ثم نظر في السماء، ورأى كوكباً، فقال: ﴿هَٰذَا رَبِّي﴾ [الأنعام، الآية: ٧٦]، ثم اتبعه ينظر إليه ببصره حتى غاب ﴿فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْأَفِلِينَ﴾ [الأنعام، الآية: ٧٦] ثم اطلع للقمر فرآه بازغاً فقال: ﴿هَٰذَا رَبِّي﴾ [الأنعام، الآية: ٧٦]، ثم اتبعه ببصره حتى غاب ﴿فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ﴾ [الأنعام، الآية: ٧٧] فلما دخل عليه النهار وطلعت الشمس رأى عِظَمَ الشمس، ورأى شيئاً هو أعظم نوراً من كل شيء رآه قبل ذلك، فقال: ﴿هَٰذَا رَبِّي هَٰذَآ أَكْبَرُ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ۝٧٨ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۝٧٩﴾ [الأنعام، الآيتان: ٧٨، ٧٩]، ثم رجع «إبراهيم» إلى أبيه «آزر» وقد استقامت وجهته، وعرف ربه، وبريء من دين

قومه إلَّا أنه لم يبادهم ـ لم يبد لهم العداوة ـ بذلك، فأخبره أنه ابنه، فأخبرته «أم إبراهيم» عليه السلام أنه ابنه، فأخبرته بما كانت صنعت في شأنه، فسر بذلك «آزر» وفرح فرحاً شديداً.

وكان «آزر» يصنع أصنام قومه التي يعبدون، ثم يعطيها «إبراهيم» يبيعها، فيذهب بها «إبراهيم» عليه السلام فيما يذكرون، فيقول: من يشتري من يضره ولا ينفعه؟ فلا يشتريها منه أحد، فإذا بارت عليه ـ أي: كسدت ـ ذهب بها إلى نهر فصوَّب فيه رؤوسها، وقال: اشربي ـ استهزاء بقومه، وبما هم عليه من الضلالة ـ حتى فشا عيبه إياها، واستهزاؤه بها في قومه وأهل قريته، من غير أن يكون ذلك بلغ «نمرود» الملك.

ثم إنه لما بدا لإبراهيم أن يُبَادِيَ قومه بخلاف ما هم عليه، وبأمر الله والدعاء إليه: ﴿فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي ٱلنُّجُومِ ﴿٨٨﴾ فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ ﴿٨٩﴾﴾ [الصَّافات، الآيتان: ٨٨، ٨٩] يقول الله عز وجل: ﴿فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ ﴿٩٠﴾﴾ [الصَّافات، الآية: ٩٠].

وقوله: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ [الصَّافات، الآية: ٨٩] أي: طَعِين ـ مصاب بالطاعون ـ، أو لسقم كانوا يهربون منه إذا سمعوا به، وإنما يريد «إبراهيم» أن يخرجوا عنه ليبلغ من أصنامهم الذي يريد.

فلما خرجوا عنه خالف إلى أصنامهم التي كانوا يعبدون من دون الله، فَقَرَّب لها طعاماً، ثم قال: ألاَ تأكلون؟ ما لكم لا تنطقون؟ تعييراً في شأنها، واستهزاء بها(١).

وروى أبو جعفر الطبري، عن موسى بن هارون، قال: حدثنا عمرو بن حماد، قال: حدثنا أسباط، عن السدي، في خبر ذكره، عن أبي صالح، وعن أبي مالك، عن ابن عباس ـ وعن مرة الهَمْداني، عن ابن مسعود ـ وعن ناس من أصحاب النبي ﷺ: كان من شأن «إبراهيم» عليه السلام أنه طلع كوكب على «نمرود»، فذهب بضوء الشمس والقمر، ففزع من ذلك فزعاً شديداً، فدعا السحرة والكهنة

(١) تاريخ الطبري (١/ ٢٣٤ ـ ٢٣٦).

والقافة ـ جمع القائف، وهو من يحسن معرفة الأثر وتتبعه ـ والحَازَة ـ جمع الحازي، وهو الكاهن ـ فسألهم عنه، فقالوا: يخرج من ملكك رجل، يكون على وجهه هلاكك وهلاك ملكك ـ وكان مسكنه ببابل الكوفة ـ فخرج من قريته إلى قرية أخرى، فأخرج الرجال، وترك النساء، وأمر ألَّا يولد مولود ذكر إلَّا ذبحه، فذبح أولادهم، ثم إنه بدت له حاجة في المدينة، لم يأمن عليها إلَّا «آزر» أبا «إبراهيم»، فدعاه فأرسله، فقال له: انظر لا تُوَاقِعْ أهلك، فقال له «آزر»: أنا أضَنُّ بديني من ذلك، فلما دخل القرية، نظر إلى أهله فلم يملك نفسَه أن وقع عليها، فقرَّبها إلى قرية بين الكوفة والبصرة، يقال لها «أور» فجعلها في سَرَب ـ مكان خفي ـ فكان يتعاهدها بالطعام والشراب وما يصلحها، وإن الملك لما طال عليه الأمر، قال: قول سحرة كذابين، ارجعوا إلى بلدكم، فرجعوا.

وولد «إبراهيم» فكان في كل يوم يمرُّ كأنه جمعة، والجمعة كالشهر، والشهر كالسنة، من سرعة شبابه، ونسي الملك ذلك، وكبر «إبراهيم» ولا يرى أن أحداً من الخلق غيره وغير أبيه وأمه، فقال أبو «إبراهيم» لأصحابه: إن لي ابناً قد خبأته، أفتخافون عليه الملك إن أنا جئت به؟ قالوا: لا، فأت به، فانطلق فأخرجه.

فلما خرج الغلام من السَّرَب، نظر إلى الدواب والبهائم والخلق، فجعل يسأل أباه: ما هذا؟ فيخبره عن البعير أنه بعير، وعن البقرة أنها بقرة، وعن الفرس أنها فرس، وعن الشاة أنها شاة، فقال: ما لهؤلاء الخلق بُدٌّ من أن يكون لهم رَبٌّ، وكان خروجه حين خرج من السَّرَب بعد غروب الشمس، فرفع رأسه إلى السماء، فإذا هو بالكوكب، وهو «المشتري»، فقال: ﴿هَٰذَا رَبِّي﴾ [الأنعام، الآية: ٧٦] ، فلم يلبث أن غاب، فقال: ﴿لَآ أُحِبُّ ٱلۡأٓفِلِينَ﴾ [الأنعام، الآية: ٧٦] أي: لا أحب ربًّا يغيب.

قال ابن عباس: وخرج في آخر الشهر، فلذلك لم ير القمر قبل الكواكب، فلما كان آخر الليل رأى القمر بازغاً قد طلع، فقال: ﴿هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّآ أَفَلَ﴾ [الأنعام، الآية: ٧٦] يقول: غاب، ﴿قَالَ لَئِن لَّمۡ يَهۡدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلضَّآلِّينَ﴾ [الأنعام، الآية: ٧٧] فلما أصبح ورأى الشمس بازغة، قال: ﴿هَٰذَا رَبِّي هَٰذَآ أَكۡبَرُ﴾ [الأنعام، الآية: ٧٨] فلما غابت، قال الله له: أَسْلِمْ، قال: قد أسلمت لرب العالمين، ثم

أتى قومه فدعاهم، فقال: ﴿يَٰقَوْمِ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ۝٧٨ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفٗاۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۝٧٩﴾ [الأنعام، الآيتان: ٧٨،٧٩]، يقول مخلصاً: فجعل يدعو قومه وينذرهم.

وكان أبوه يصنع الأصنام فيعطيها ولَدِه فيبيعونها، وكان يعطيه فينادي: من يشتري من يضره ولا ينفعه؟ فيرجع إخوته وقد باعوا أصنامهم، ويرجع «إبراهيم» بأصنامه كما هي، ثم دعا أباه، فقال: ﴿يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْـٔٗا﴾ [مريم، الآية: ٤٢]، قال: ﴿قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِي يَٰٓإِبْرَٰهِيمُۖ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَۖ وَٱهْجُرْنِي مَلِيّٗا ۝٤٦﴾ [مريم، الآية: ٤٦]، قال: أبداً، ثم قال له أبوه: يا إبراهيم! إن لنا عيداً لو خرجت معنا لأعجبك ديننا، فلما كان يوم العيد، فخرجوا إليه، خرج معهم «إبراهيم»، فلما كان ببعض الطريق ألقى نفسه، وقال: ﴿إِنِّي سَقِيمٞ﴾ [الصَّافات، الآية: ٨٩]، يقول: أشتكي رجليَّ، فتوطأوا رجليه، وهو صريع، فلما مضوا نادى في آخرهم، وقد بَقِيَ ضَعْفَى الناس: ﴿وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّواْ مُدْبِرِينَ ۝٥٧﴾ [الأنبياء، الآية: ٥٧]، فسمعوها منه.

ثم رجع «إبراهيم» إلى بيت الآلهة، فإذا هو في بهو عظيم ـ بيت واسع ـ، مستقبل باب البهو صنم عظيم إلى جنبه أصغر منه، بعضها إلى جنب بعض، كل صنم يليه أصغر منه، حتى بلغوا باب البهو، وإذا هم قد صنعوا طعاماً، فوضعوه بين يدي الآلهة، قالوا: إذا كان حِينُ ـ وقتُ ـ نرجع رجعنا، وقد باركت الآلهة في طعامنا فأكلنا، فلما نظر إليهم «إبراهيم» عليه السلام، وإلى ما بين أيديهم من الطعام، قال: ألا تأكلون؟ فلما لم تجبه، قال: ما لكم لا تنطقون؟ فراغ عليهم ـ مالَ ـ ضرباً باليمين، فأخذ حديدة فبقر كل صنم في حافتيه، ثم علَّق الفأس في عنق الصنم الأكبر، ثم خرج فلما جاء القوم إلى طعامهم، ونظروا إلى آلهتهم، قالوا: ﴿قَالُواْ مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٥٩ قَالُواْ سَمِعْنَا فَتٗى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ ۝٦٠﴾ [الأنبياء، الآيتان: ٥٩، ٦٠] قال أبو جعفر: رجع الحديث إلى حديث ابن إسحاق.

ثم أقبل عليهم كما قال الله ﷻ: ﴿ضَرْبَۢا بِٱلْيَمِينِ﴾ [الصافات، الآية: ٩٣]، ثم جعل يكسرهن بفأس في يده، حتى إذا بقي أعظم صنم منها ربط الفأس بيده، ثم

تركهن، فلما رجع قومه رأوا ما صنع بأصنامهم، فراعهم ذلك، فأعظموه وقالوا: من فعل[١] بآلهتنا إنه لمن الظالمين؟ ثم ذكروا فقالوا: قد ﴿سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ﴾ [الأنبيَاء، الآية: ٦٠] يعنون فتًى يسبها ويعيبها ويستهزىء بها، لم نسمع أحداً يقول ذلك غيره، وهو الذي نظن صنع هذا بها.

وبلغ ذلك «نمرود» وأشراف قومه، فقالوا: ﴿فَأْتُوا۟ بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعْيُنِ ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ﴾ [الأنبيَاء، الآية: ٦١] أي: ما يصنع به، فكان جماعة من أهل التأويل، منهم قتادة والسُّدِّيُّ يقولون في ذلك: لعلهم يشهدون عليه أنه هو الذي فعل ذلك، وقالوا: كرهوا أن يأخذوه بغير بيِّنة، قال: فلما أُتِيَ به، فاجتمع له قومه عند ملكهم «نمرود»، قالوا: ﴿ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ۝٦٢ قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُوا۟ يَنطِقُونَ ۝٦٣﴾ [الأنبيَاء، الآيتان: ٦٢، ٦٣]. غضب أن يعبدوا معه هذه الصغار وهو أكبر منها فكسرهن، فَارْعَوَوْا، ورجعوا عنه فيما ادعوا عليه من كسرهن إلى أنفسهم فيما بينهم، فقالوا: لقد ظلمناه، وما نراه إلَّا كما قال، ثم قالوا وعرفوا أنها لا تضر ولا تنفع ولا تبطش: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ﴾ [الأنبيَاء، الآية: ٦٥]، أي: لا يتكلمون فيخبرونا من صنع هذا بها، وما تبطش بالأيدي فنصدقك، يقول الله ﷻ: ﴿ثُمَّ نُكِسُوا۟ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ ۝٦٥﴾ [الأنبيَاء، الآية: ٦٥]، أي: نكسوا على رؤوسهم في الحجة عليهم لإبراهيم حين جادلهم، فقال عند ذلك «إبراهيم» حين ظهرت الحجة عليهم بقولهم: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ ۝٦٥ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ ۝٦٦ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الأنبيَاء، الآيات: ٦٥-٦٧].

قال: وحاجه قومه عند ذلك في الله جَلَّ ثناؤه يستوصفونه إياه ويخبرونه أن آلهتهم خير مما يَعْبُدُ، فقال: ﴿أَتُحَٰٓجُّوٓنِّى فِى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنِ﴾ [الأنعَام، الآية: ٨٠] إلى قوله: ﴿فَأَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [الأنعَام، الآية: ٨١]، يضرب لهم الأمثال، ويُصَرِّف لهم العِبَر، ليعلموا أن الله هو أحق أن يخاف ويعبد مما يعبدون من دونه.

---

(١) من فعل: ينبغي إضافة: هذا، لتستقيم الجملة.

قال أبو جعفر: ثم إن «نمرود» ـ فيما يذكرون ـ قال لإبراهيم: أرأيت إلٰهك هذا الذي تعبد وتدعو إلى عبادته، وتذكر من قدرته التي تعظمه بها على غيره ما هو؟ ﴿قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّيَ ٱلَّذِى يُحْيِۦ وَيُمِيتُ﴾ [البَقَرَة، الآية: ٢٥٨] فقال «نمرود»: فأنا ﴿أُحْيِۦ وَأُمِيتُ﴾ [البَقَرَة، الآية: ٢٥٨]، فقال له «إبراهيم»: كيف تحيي وتميت؟ قال: آخذ الرجلين قد استوجبا القتل في حكمي، فأقتل أحدهما فأكون قد أمته، وأعفو عن الآخر، فأتركه فأكون قد أحييته، فقال له «إبراهيم» عند ذلك: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِي بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ﴾ [البَقَرَة، الآية: ٢٥٨]، فعرف أنه كما يقول، فبُهِتَ عند ذلك «نمرود»، ولم يرجع إليه شيئاً، وعرف أنه لا يطيق ذلك، يقول الله عز وجل: ﴿فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ﴾ [البَقَرَة، الآية: ٢٥٨]، يعني وقعت عليه الحجة. قال: ثم إن «نمرود» وقومه أجمعوا في إبراهيم فقالوا: ﴿حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓاْ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ﴾ [الأنبياء، الآية: ٦٨][(١)].

ثم قال أبو جعفر: حدثنا القاسم، قال: حدثنا الحسين قال: حدثني حجاج، عن ابن جريج، قال: أخبرني وهب بن سلمان، عن شعيب الجبَّائي، قال: إن اسم الذي قال حرِّقوه «هينون» فخسف الله به الأرض، فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة.

ثم رجع الحديث إلى ابن إسحاق.

قال: فأمر «نمرود» بجمع الحطب، فجمعوا له صِلَابَ الحطب، من أصناف الخشب، حتى أن كانت المرأة من قرية «إبراهيم» ـ فيما يذكر ـ لتنذر في بعض ما تطلب مما تحب أن تدرك: لئن أصابته لتحطبَنَّ في نار «إبراهيم» التي يحرَّق بها احتساباً، في دينها، حتى إذا أرادوا أن يلقوه فيها، قدَّموه وأشعلوا في كل ناحية من الحطب الذي جمعوا له، حتى إذا اشتعلت النار، واجتمعوا لقذفه فيها، صاحت السماء والأرض وما فيها من الخلق إلَّا الثقلين ـ الإنس والجن ـ فيما يذكرون إلى الله عز وجل صيحة واحدة: أي ربَّنا! «إبراهيم» ليس في أرضك أحد يعبدك غيره، يحرق بالنار فيك، فأْذَن لنا في نصرته، فيذكرون ـ والله أعلم ـ أن

(١) تاريخ الطبري (١/ ٢٣٦ ـ ٢٤٠).

الله ﷻ حين قالوا ذلك، قال: إن استغاث بشيء منكم أو دعاه فلينصره، فقد أذنت له في ذلك، فإن لم يدع غيري فأنا وليه، فخلُّوا بيني وبينه، فأنا أمنعه، فلما ألقوه فيها، قال: ﴿يَٰنَارُ كُونِي بَرۡدٗا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ﴾ [الأنبيَاء، الآية: ٦٩] ، فكانت كما قال الله ﷻ.

وحدثني موسى بن هارون، قال: حدثنا عمرو بن حماد، قال: حدثنا أسباط، عن السُّدِّيِّ، قال: ﴿قَالُواْ ٱبۡنُواْ لَهُۥ بُنۡيَٰنٗا فَأَلۡقُوهُ فِي ٱلۡجَحِيمِ ۝٩٧﴾ [الصَّافات، الآية: ٩٧] ، قال: فحبسوه في بيت، وجمعوا له حطباً، حتى أن كانت المرأة لتمرض فتقول: لئن عافاني الله لأجمعَنَّ حطباً لإبراهيم، فلما جمعوا له وأكثروا من الحطب، حتى أن كان الطير ليمر بها فيحترق من شدة وَهَجها وحَرِّها، فعمدوا إليه فرفعوه على رأس البنيان، فرفع «إبراهيم» رأسه إلى السماء، فقالت السماء والأرض والجبال والملائكة: ربنا! «إبراهيم» يحرَق فيك، فقال: أنا أعلم به، فإن دعاكم فأغيثوه.

وقال «إبراهيم» حين رفع رأسه إلى السماء: اللهم! أنت الواحد في السماء، وأنا الواحد في الأرض، ليس في الأرض أحد يعبدك غيري، حسبي الله ونعم الوكيل، فقذفوه في النار، فناداها فقال: ﴿يَٰنَارُ كُونِي بَرۡدٗا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ﴾ [الأنبيَاء، الآية: ٦٩] .

وكان «جَبْرئيل» هو الذي ناداها، وقال ابن عباس: لو لم يتبع بردها سلاماً لمات «إبراهيم» من بردها، فلم تبق يومئذ نار في الأرض إلا طَفِئَت، ظَنَّت أنها تُعْنَى، فلما طفئت النار نظروا إلى «إبراهيم» فإذا هو ورجل آخر معه، وإذا رأس «إبراهيم» في حَجْره يمسح عن وجهه العرق، وذكر أن الرجل مَلَكُ الظِّلِّ، وأنزل الله ناراً وانتفع بها بنو «آدم»، فأخرجوا «إبراهيم»، فأدخلوه على المَلِك، ولم يكن قبل ذلك دخل عليه.

قال: وبعث الله ﷻ مَلَك الظِّلِّ في صورة «إبراهيم»، فقعد فيها إلى جنبه يؤنسه، فمكث «نمرود» أياماً لا يشك أن النار قد أكلت «إبراهيم» وفرغت منه، ثم ركب فَمَرَّ بها وهي تحرق ما جمعوا لها من الحطب، فنظر إليها، فرأى «إبراهيم» جالساً فيها إلى جنبه رجل مثله، فرجع من مركبه ذلك، فقال لقومه:

لقد رأيت «إبراهيم» حياً في النار، ولقد شُبِّهَ عليَّ، ابنوا لي صرحاً يشرف بي على النار حتى أستثبت، فبنوا له صرحاً، فأشرف عليه، فاطَّلع منه إلى النار، فرأى «إبراهيم» جالساً فيها، ورأى المَلَك قاعداً إلى جنبه في مثل صورته، فناداه، «نُمْرود»: يا «إبراهيم»! كبير إلٰهك الذي بلغت قدرته وعزته أن حال بين ما أرى وبينك، حتى لم تضرك يا«إبراهيم»! هل تستطيع أن تخرج منها؟ قال: نعم، قال: هل تخشى إن أقمت فيها أن تضرك؟ قال: لا، قال: فقم واخرج منها، فقام «إبراهيم» يمشي فيها حتى خرج منها، فلما خرج إليه، قال: يا «إبراهيم»! من الرجل الذي رأيت معك في مثل صورتك قاعداً إلى جنبك؟ قال: ذلك مَلَكُ الظِّلِّ، أرسله إليَّ ربي ليكون معي فيها ليؤنسني، وجعلها عليَّ برداً وسلاماً.

فقال «نُمْرود» ـ فيما حُدِّثْتُ ـ : يا «إبراهيم» إني مقرِّب إلى إلٰهك قرباناً لما رأيت من عزته وقدرته، ولما صنع بك حين أبيت إلَّا عبادته وتوحيده، إني ذابح له أربعة آلاف بقرة، فقال له «إبراهيم»: إذاً لا يقبل منك ما كنتَ على شيء من دينك هذا حتى تفارقه إلى ديني!

فقال: يا «إبراهيم»!: لا أستطيع ترك ملكي، ولكني سوف أذبحها، فذبحها «نُمرُود»، ثم كفَّ عن «إبراهيم»، ومنعه الله عز وجل منه.

وقال «أبو جعفر»: حدثنا ابن حميد، قال: حدثنا جرير، عن مغيرة، عن الحارث، عن أبي زرعة، عن أبي هريرة، قال: إن أحسن شيء قاله «أبو إبراهيم» لما رفع عنه الطبق وهو في النار وحده يرشح جبينه، فقال عند ذلك: نعم الربُّ ربُّك يا «إبراهيم!».

وقال «أبو جعفر»: حدثنا القاسم، قال: حدثنا الحسين، قال: حدثنا معتمر بن سليمان التيمي، عن بعض أصحابه، قال: جاء «جَبْرَئيل» إلى «إبراهيم» عليه السلام وهو يُوثَق ويقمط ليلقى في النار، قال: يا «إبراهيم!» ألك حاجة؟ قال: أما إليك فلا.

وقال «أبو جعفر»: حدثني أحمد بن المقدام، قال: حدثني المعتمر، قال: سمعت أبي قال: حدثنا قتادة، عن أبي سليمان، قال: ما أحرقت النار من «إبراهيم» إلَّا وثاقَه.

قال «أبو جعفر»: رجع الحديث إلى حديث ابن إسحاق.

قال: واستجاب لإبراهيم ﷺ رجال من قومه حين رأوا ما صنع الله على خوف من «نُمْرُود» وملئهم، فآمن له «لوط» ـ وكان ابن أخيه ـ وهو «لوط بن هاران بن تارخ»، و«هاران» هو أخو «إبراهيم»، وكان لهما أخ ثالث، يقال له: «ناحور بن تارخ»، فهاران أبو «لوط»، و«ناحور» أبو «بتويل»، و«بتويل» أبو «لابان»، و«ربقا» ابنة «بتويل» امرأة «إسحاق بن إبراهيم» أم «يعقوب»، و«ليا» و«راحيل» زوجتا «يعقوب» ابنتا «لابان».

وآمنت به «سارة» وهي ابنة عمه، وهي «سارة بنت هاران» الأكبر عم «إبراهيم»، وكانت لها أخت، يقال لها: «مَلْكَا» امرأة «ناحور»[١].

وقد قيل: إن «سارة» كانت ابنة ملك «حَرَّان»، ذكر من قال ذلك:

حدثني موسى بن هارون، قال: حدثنا عمرو بن حماد، قال: حدثنا أسباط، عن السديِّ، قال: انطلق «إبراهيم» و«لوط» قِبَلَ الشام، فلقي «إبراهيم»، «سارة» وهي ابنة ملك «حَرَّان»، وقد طعنت على قومها في دينهم، فتزوجها على ألَّا يغيرَّها، ودعا «إبراهيم» أباه «آزر» إلى دينه، فقال له: يا أبت! لِمَ تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغني عنك شيئاً؟ فأبى أبوه الإجابة إلى ما دعاه إليه، ثم إن «إبراهيم» ومن كان معه من أصحابه الذين اتَّبعوا أمره أجمعوا لفراق قومهم، فقالوا: ﴿إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ﴾ [المُمتَحنَة، الآية: ٤] أيها المعبودون من دون الله ﴿وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا﴾ [المُمتَحنَة، الآية: ٤] أيها العابدون ﴿حَتَّىٰ تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ﴾ [المُمتَحنَة، الآية: ٤]، ثم خرج «إبراهيم» مهاجراً إلى ربه، وخرج معه «لوط» مهاجراً، وتزوج «سارة» ابنة عمه، فخرج بها معه يلتمس الفرار بدينه، والأمان على عبادة ربه، حتى نزل «حرَّان»، فمكث بها ما شاء الله أن يمكث، ثم خرج منها مهاجراً حتى قدم «مصر»، وبها «فرعون» من الفراعنة الأولى.

وكانت «سارة» من أحسن الناس فيما يقال، وكانت لا تعصي «إبراهيم»

(١) تاريخ الطبري (١/ ٢٤١ ـ ٢٤٤).

شيئاً، وبذلك أكرمها الله عز وجل.

فلما وصفت لفرعون، ووُصِفَ له حسنها وجمالها أرسل إلى «إبراهيم»، فقال: ما هذه المرأة التي معك؟ قال: هي أختي.

وتَخوَّف «إبراهيم» إن قال هي امرأتي أن يقتله عنها، فقال لإبراهيم: زَيِّنْها، ثم أرْسِلْها إليَّ حتى انظر إليها، فرجع «إبراهيم» إلى «سارة» وأمرها فتهيأت، ثم أرسلها إليه، فأقبلت حتى دخلت عليه، فلما قعدت إليه تناولها بيده، فيبست يده إلى صدره، فلما رأى فرعون ذلك أعظم أمرها، وقال: ادعِ الله أن يطلق عني، فوالله! لا أريبك ولأحسنَنَّ إليك، فقالت: اللهم! إن كانَ صادقاً فأطلق يده، فأطلق الله يده، فردَّها إلى «إبراهيم»، ووهب لها «هَاجَرَ»، جارية كانت له قبطية[(١)].

أجل! أولئك قوم صدقوا ما عاهدوا الله عليه، وأخلصوا دينهم لله، فما كان الله ليضيعهم، بل جعلهم في حِرْزه المنيع، ومنعهم كيد الأشرار والظالمين، وجَنَّبهم مكر الماكرين، لقد أوت «سارة» إلى ركن شديد، واعتصمت بحبل الله المتين، فردَّها الله إلى حليلها سالمة غانمة، مكللاً جبينها بالغار، وعلى هامتها تاج العفة والوقار، الذي زيَّنها به العزيز الجبار، ومن يعتصم بالله فقد هُدِيَ، والله ولي المؤمنين.

وقال «أبو جعفر»: حدثنا أبو كريب، قال: حدثنا أبو أسامة، قال: حدثني هشام، عن محمد، عن أبي هريرة: أن رسول الله ﷺ قال: «لم يكذب «إبراهيم» عليه السلام غير ثلاث: ثنتين في ذات الله، قوله: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ [الصَّافات، الآية: ٨٩] وقوله: ﴿بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا﴾ [الأنبياء، الآية: ٦٣]، وبينا هو يسير في أرض جبار من الجبابرة، إذ نزل منزلاً، فأتى الجبار رجلٌ، فقال: إن في أرضك ـ أو قال: ههنا ـ رجلاً معه امرأة من أحسن الناس، فأرسل إليه، فجاء، فقال: ما هذه المرأة منك؟ قال: هي أختي، قال: اذهب فأرْسِلْها إليَّ، فانطلق إلى «سارة» فقال: إن هذا الجبار قد سألني عنك فأخبرته أنك أختي، فلا تكذِّبيني

---

(١) تاريخ الطبري (١/ ٢٤٤، ٢٤٥).

عنده، فإنك أختي في كتاب الله، فإنه ليس في الأرض مسلم غيري وغيرُك.

قال: فانْطُلِق بها، وقام «إبراهيم» عليه السلام يصلي.

قال: فلما دخلت عليه فرآها، أهوى إليها، وذهب يتناولها، فأُخِذَ أخْذاً شديداً، فقال: ادْعي الله ولا أضُرُّك، فدعت له، فأرْسِلَ، فأهوى إليها، فذهب يتناولها، فأُخِذَ أخْذاً شديداً، فقال: ادْعي الله ولا أضُرُّك، فدعت له، فأُرْسِلَ، ثم فعل ذلك الثالثة، فأُخِذَ، فذكر مثل المرتين، فأُرْسِلَ، قال: فدعا أدنى حُجَّابه، فقال: إنك لم تأتني بإنسان، ولكنك أتيتني بشيطان، أخرجها وأعطها «هَاجَرَ»، فأُخرِجَت وأُعْطِيَت «هاجر» فأقبلت بها، فلما أحس «إبراهيم» بمجيئها انفتل من صلاته، فقال: مَهْيَمْ؟[١] فقالت: كفى الله كيد الفاجر الكافر، وأخدم «هاجَرَ».

قال محمد بن سيرين: فكان «أبو هريرة» إذا حَدَّث هذا الحديث يقول: فتلك أمكم، يا بني ماء السماء![٢].

وأخرج الحافظ ابن كثير في البداية والنهاية: وقال الإمام أحمد: حدثنا علي بن حفص، عن ورقاء، هو ابن عمر اليشكري، عن أبي الزناد، عن الأعرج، عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «لم يكذب إبراهيم إلا ثلاث كذبات: قوله حين دُعِيَ إلى آلهتهم فقال: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ [الصَّافات، الآية: ٨٩] وقوله ﴿بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا﴾ [الأنبيَاء، الآية: ٦٣] وقوله لسارة: إنها أختي. قال ودخل «إبراهيم» عليه السلام قرية فيها ملك من الملوك، أو جبار من الجبابرة، فقيل: دخل «إبراهيم» الليلة بامرأة من أحسن الناس، قال: فأرسل إليه الملك أو الجبار: من هذه معك؟ قال: أختي، قال: فأرسل بها، قال: فأرسل بها إليه، وقال: لا تكذبي قولي، فإني قد أخبرته أنك أختي، إنْ على الأرض، ـ أي: ما على الأرض ـ مؤمن غيري وغيرك، فلما دخلت عليه قام إليها، فأقبلت تتوضأ وتصلي وتقول: اللهم! إن كنت تعلم أني آمنت بك وبرسولك، وأحصنت فرجي إلا على زوجي فلا تسلط عليَّ الكافر، قال: فغطَّ حتى ركض برجله، قال أبو الزناد: قال أبو سلمة بن عبد الرحمٰن، عن أبي هريرة: إنها قالت: اللهم! إن

(١) كلمة استفهام، أي: ما حالك؟ وما شأنك؟ و: ما وراءك؟
(٢) تاريخ الطبري (١/ ٢٤٥، ٢٤٦).

يمت يُقَلْ: هي قتلته، قال: فأرسل، قال: ثم قام إليها، قال: فقامت تتوضأ وتصلي وتقول: اللهم! إن كنت تعلم أني آمنت بك وبرسولك، وأحصنت فرجي إلَّا على زوجي فلا تسلط عليَّ الكافر، قال: فغطَّ حتى ركض برجله، قال أبو الزناد: وقال أبو سلمة، عن أبي هريرة: إنها قالت: اللهم! إن يمت يُقَلْ: هي قتلته، قال: فأرسل، قال: فقال في الثالثة، أو الرابعة: ما أرسلتم إلي إلَّا شيطاناً، ارجعوها إلى «إبراهيم» وأعطوها «هَاجَرَ».

قال: فرجعت فقالت لإبراهيم: أشعرت أن الله رد كيد الكافرين وأخدم وليدة؟(١).

وأضاف ابن كثير: وكان «إبراهيم» عليه السلام من وقت ذُهِبَ بها إلى الملك قام يصلي لله عز وجل، ويسأله أن يدفع عن أهله، وأن يرد بأس هذا الذي أراد أهله بسوء.

وهكذا فعلت هي أيضاً، فلما أراد عدو الله أن ينال منها أمراً قامت إلى وضوئها وصلاتها، ودعت الله عز وجل بما تقدم من الدعاء العظيم، ولهذا قال تعالى: ﴿وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ﴾ [البَقَرَة، الآية: ٤٥] ، فعصمها الله وصانها لعصمة عبده، ورسوله، وحبيبه، وخليله «إبراهيم» عليه السلام.

وقال ابن كثير: ورأيت في بعض الآثار أن الله عز وجل كشف الحجاب فيما بين «إبراهيم» عليه السلام وبينها فلم يزل يراها منذ خرجت من عنده إلى أن رجعت إليه، وكان مشاهداً لها وهي عند الملك، وكيف عصمها الله منه، ليكون ذلك أطيب لقلبه، وأقرَّ لعينه، وأشد لطمأنينته، فإنه كان يحبها حباً شديداً لدينها، وقرابتها منه، وحسنها الباهر، فإنه قد قيل: إنه لم تكن امرأة بعد «حَوَّاء» إلى زمانها أحسن منها رضي الله عنها، ولله الحمد والمنة(٢).

ثم رجع «إبراهيم الخليل» عليه السلام من بلاد مصر إلى أرض التيمن، وهي الأرض المقدسة التي كان فيها، ومعه أنعام، وعبيد، ومال جزيل، وصحبتهم

---

(١) البداية والنهاية (١/ ١٦٩).
(٢) البداية والنهاية (١/ ١٧٠).

«هاجر» القبطية المصرية، ثم إن «لوطاً» عليه السلام نزح بما له من الأموال الجزيلة، بأمر الخليل له في ذلك إلى أرض الغور المعروف بغور «زغر» فنزل بمدينة «سدوم» وهي أم تلك البلاد في ذلك الزمان، وكان أهلها أشراراً، كفاراً، فجاراً، وأوحى الله تعالى إلى «إبراهيم الخليل» فأمره أن يمد بصره، وينظر شمالاً، وجنوباً، وشرقاً، وغرباً، وبشَّره بأن هذه الأرض كلها سأجعلها لك ولخلفك إلى آخر الدهر، وسأكثر ذريتك حتى يصيروا بعدد تراب الأرض، وهذه البشارة اتصلت بهذه الأمة بل ما كملت ولا كانت أعظم منها في هذه الأمة المحمدية.

يؤيد ذلك قول رسول الله ﷺ: **«إن الله زوى لي الأرض فرأيت مشارقها ومغاربها وسيلغ ملك أمتي ما زوي لي منها»**.

وكان «خليل الرحمٰن إبراهيم» عليه السلام تَوَّاقاً إلى الذرية الصالحة، راغباً في أن يحظى بنعمة الأبوة إلى حد بعيد، ولكن أمام هذه الأمنية الغالية عقبتان: الأولى: أنه بلغ من الكبر عتياً، والثانية وهي الأشد، أن امرأته «سارة» رضي الله عنها عقيم لا أمل يرجى في أن تحمل وتصبح أماً في يوم من الأيام.

ولكن علام الغيوب والقاهر فوق عباده، والقادر على أن يوصل كل أحد إلى مراده، الذي لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء، والذي يتصرف وحده كيف يشاء، أرسل رسله إلى خليله «إبراهيم» عليه السلام بأعظم البشائر، التي ما كانت تبرح الأفكار والخواطر، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ۖ قَالَ سَلَٰمٌ ۖ فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ۚ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٠﴾﴾ [هُود، الآيتان: ٦٩،٧٠].

وقد ذكر العلامة «الآلوسي» في تفسيره «روح المعاني» فقال: وهم الملائكة، روي عن ابن عباس أنهم كانوا اثني عشر مَلَكاً.

وقال السدي: أحد عشر على صورة الغلمان في غاية الحسن والبهجة، وحكى صاحب «الغنيان» أنهم عشرة منهم «جبريل»، وقال الضحاك: تسعة، وقال محمد بن كعب: ثمانية، وحكى الماوردي أنهم أربعة، ولم يسمِّهم. وجاء في رواية عن عثمان بن محيص أنهم: «جبريل» و«إسرافيل» و«ميكائيل» و«رفائيل» عليهم السلام.

وفي رواية عن ابن عباس، وابن جبير: أنهم ثلاثة الأولون فقط، وقال مقاتل: «جبرائيل»، و«ميكائيل»، و«ملك الموت» عليهم السلام، واختار بعضهم الاقتصار على القول بأنهم ثلاثة، لأن ذلك أقل ما يدل عليه الجمع، وليس هناك ما يعوَّل عليه في الزائد، وإنما سند إليهم المجيء دون الإرسال لأنهم لم يكونوا مرسلين إليه عليه السلام، بل إلى قوم «لوط» لقوله تعالى: ﴿إِنَّآ أُرۡسِلۡنَآ إِلَىٰ قَوۡمِ لُوطٖ﴾ [هُود، الآية: ٧٠] وإنما جاؤوا لداعية البشرى، قيل: ولما كان المقصود في السورة الكريمة ذكر صنيع الأمم السالفة مع الرسل المرسلة إليهم، ولحوق العذاب بهم، ولم يكن جميع قوم «إبراهيم» عليه السلام من لحق بهم العذاب، بل إنما لحق بقوم «لوط» منهم خاصة، غير الأسلوب المطرد فيما سبق من قوله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمۡ هُودٗاۗ﴾ [الأعراف، الآية: ٦٥] ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمۡ صَٰلِحٗاۗ﴾ [الأعراف، الآية: ٧٣] ، ثم رجع إليه حيث قيل: ﴿وَإِلَىٰ مَدۡيَنَ أَخَاهُمۡ شُعَيۡبٗاۚ﴾ [الأعراف، الآية: ٨٥] . والمراد ﴿بِٱلۡبُشۡرَىٰ﴾ [هُود، الآية: ٦٩] مطلق البشارة المنتظمة بالبشارة بالولد من «سارة» لقوله تعالى: ﴿فَبَشَّرۡنَٰهَا بِإِسۡحَٰقَ﴾ [هُود، الآية: ٧١] الآية، وقوله سبحانه: ﴿فَبَشَّرۡنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٖ ١٠١﴾ [الصَّافات، الآية: ١٠١] إلى غير ذلك، والبشارة بعدم لحوق الضرر به، لقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنۡ إِبۡرَٰهِيمَ ٱلرَّوۡعُ وَجَآءَتۡهُ ٱلۡبُشۡرَىٰ﴾ [هُود، الآية: ٧٤] لظهور تفرع المجادلة على مجيئها، وكانت البشارة الأولى على ما قيل: من «ميكائيل»، والثانية من «إسرافيل» عليه السلام، وقيل: المراد بها البشارة بهلاك قوم «لوط» عليه السلام، فإن هلاك الظلمة من أجل ما يبشر به المؤمن. ﴿قَالُواْ سَلَٰمٗاۖ قَالَ سَلَٰمٞۖ﴾ [هُود، الآية: ٦٩] أي: سلمنا أو نسلم عليك سلاماً ﴿قَالَ سَلَٰمٞۖ﴾ [هُود، الآية: ٦٩] أي: عليكم سلام أو سلام عليكم، وقد حياهم عليه السلام بأحسن من تحيتهم لأنها بجملة اسمية دالة على الدوام والثبات فهي أبلغ، وأصل معنى السلام السلامة مما يضر، ﴿فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجۡلٍ حَنِيذٖ﴾ [هُود، الآية: ٦٩] الحنيذ: السمين المشوي الذي يقطر ودكه، وفسره مجاهد بالمطبوخ، وإنما جاء عليه السلام بالعجل لأن ما له كان البقر وهو أطيب ما فيها، وكان من دأبه عليه السلام إكرام الضيف، ولذا عَجَّل القِرَى، وذلك من أدب الضيافة لما فيه من الاعتناء بشأن الضيف، وفي مجيئه بالعجل كله مع أنهم بحسب الظاهر يكفيهم بعضه، دليل على أنه من الأدب أن يحضر للضيف أكثر مما يأكل، واختلف في هذا العجل هل

كان مهياً قبل مجيئهم أو أنه هيئ بعد أن جاؤوا؟ قولان اختار «أبو حيان» أولهما لدلالة السرعة بالإتيان به على ذلك، ويختار الفقير ثانيهما لأنه أزيد في العناية، وأبلغ في الإكرام، وليست السرعة نصاً في الأول كما لا يخفى.

﴿فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً﴾ [هود، الآية: ٧٠] رأى أنهم لا يمدون أيديهم إلى الطعام، ويلزمه أنهم لا يأكلون، يقول «الآلوسي» رحمه الله: روي أنهم كانوا ينكتون اللحم بقداح في أيديهم وليس بشيء، وفي القلب من صحة هذه الرواية شيء، إذ هذا النكت أشبه شيء بالعبث، والملائكة عليهم السلام يَجِلُّون عن مثله، وفي الآية دليل على أن من أدب الضيافة النظر إلى الضيف هل يأكل أو لا، لكن ذكروا أنه ينبغي أن يكون بتلفُّت ومسارقة لا بتحديد النظر لأن ذلك مما يجعل الضيف مقصراً في الأكل، أي: لمّا شاهد منهم ذلك نفر واستشعر الخوف (قالوا) حين رأوا أثر ذلك عليه عليه السلام، أو أعلمهم الله تعالى به، وجُوِّز أن يكون ذلك لعلمهم أن علمه عليه السلام أنهم ملائكة يوجب الخوف لأنهم لا ينزلون إلا بعذاب، وظن أنهم أرسلوا لعذاب قومه أو لأمر أنكره الله تعالى عليه، ﴿قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ﴾ [هود، الآية: ٧٠] خاصة، ويفهم من كلام بعضهم أنه عليه السلام لم يتحقق كونهم ملائكة إلّا بعد أن مسح «جبريل» عليه السلام العجل بجناحه فقام يدرج حتى لحق بأمه فحينئذ عرفهم وأمن منهم، ولم يتحقق صحة الخبر عندي، والذي أميل إليه أنه عليه السلام عرفهم قبل ذلك وأن خوفه منهم لكونهم ملائكة لم يدر لأي شيء نزلوا[1].

قال تعالى: ﴿وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ﴾ [هود، الآية: ٧١]. كانت امرأته «سارة» رضي الله عنها قائمة في الخدمة، وكانت نساؤهم لا يتحجبن، لا سيما العجائز منهن، وكانت رضي الله عنها عجوزاً، (فضحكت) فسر بعدة وجوه، منها الضحك المعروف، وقيل: سروراً بهلاك أهل الفساد، وقيل: سروراً بزوال الخوف عن «إبراهيم» عليه السلام، وقيل: سروراً بصدق ظنها لأنها كانت تقول لإبراهيم: اضمم «لوطاً» إليك فإني أرى العذاب سينزل بقومه، وعن ابن عباس أنها ضحكت من شدة خوف «إبراهيم» وهو في أهله وغلمانه، والذين جاؤوه

(١) انظر روح المعاني (١٢/٩٧).

ثلاثة، وهي تعهده يغلب الأربعين، وقيل: المائة، وقال قتادة: كان ذلك من غفلة قوم «لوط» وقرب العذاب منهم.

وقال السدي: ضحكت من إمساك الأضياف عن الأكل، وقالت: عجباً لأضيافنا نخدمهم بأنفسنا وهم لا يأكلون طعامنا، وقال وَهْب بن منبِّه: وروي أيضاً عن ابن عباس أنها ضحكت من البشارة بإسحاق، وقيل: المراد بالضحك التبسم، وعن ابن عباس أن (ضحكت) بمعنى حاضت، وروي ذلك عن ابن عمر رضي الله عنهما، ومجاهد، وعكرمة.

وأنكر أبو عبيدة وأبو عبيد والفراء مجيء (ضحك) بمعنى حاض، وأثبت ذلك جمهور اللغويين، وأنشدوا قوله:

(وضحك) الأرانب فوق الصفا كمثل دم الجوف يوم اللقا

وقوله:

وعهدي بسلمى (ضاحكاً) في لبابة ولم يعد حقاً ثديها أن تحلما

وقوله:

إني لآتي العروس عند طهورها وأهجرها يوماً إذا تك (ضاحكا)

والمثبت مقدم على النافي، ومن حفظ حجة على من لم يحفظ.

ولما بدا السرور على «سارة» رضي الله عنها تبعه سرور أتم منه حيث بشَّرها رسل الله تعالى بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب عليه السلام. فتملكتها الدهشة و ﴿قَالَتْ يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِى شَيْخًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوٓا۟ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۖ رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ ۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ﴿٧٣﴾﴾ [هود، الآيتان: ٧٢، ٧٣] وكلمة الويل أصلها الخزي، وتستعمل في كل أمر فظيع، والمراد هنا التعجب، وقد كثرت هذه الكلمة على أفواه النساء إذا طرأ عليهم ما يتعجن منه، وقال ابن إسحاق كانت ابنة تسعين سنة، أو تسع وتسعين على ما روي عن مجاهد، وكان «إبراهيم» عليه السلام ابن مائة سنة أو مائة وعشرين[1]، فسبحان من بيده أمور العباد يصرفها كيف يشاء، لا يسأل عما يفعل، وهم يسألون، إنما أمره إذا

(١) انظر روح المعاني (١٢/ ١٠٠).

أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون!. وتابع «الآلوسي» قوله:

﴿قَالُوٓاْ أَتَعۡجَبِينَ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۖ﴾ [هود، الآية: ٧٣] أي: قدرته وحكمته، أو تكوينه وشأنه سبحانه! أنكروا عليها تعجبها لأنها كانت ناشئة في بيت النبوة، ومهبط الوحي، ومحل الخوارق، فكان حقها أن تتوقر ولا يزدهيها ما يزدهي سائر النساء من أمثال هذه الخوارق، من ألطاف الله سبحانه الخفية، ولطائف صنعه الفائضة على كل أحد ممن يتعلق بإفاضته عليه مشيئته تعالى الأزلية، لا سيما أهل بيت النبوة الذين هم هم، وأن تسبح الله تعالى وتمجده وتحمده، وإلى ذلك أشاروا بقوله تعالى: ﴿رَحۡمَتُ ٱللَّهِ﴾ [هود، الآية: ٧٣] المستتبعة كل خير. ووضع المظهر موضع المضمر لزيادة تشريفها، والإيماء إلى عظمتها، (وبركاته) أي: خيراته التامة المتكاثرة التي من جملتها هبة الأولاد، وقيل: الرحمة والنبوة، والبركات الأسباط من بني إسرائيل لأن الأنبياء ﷺ منهم وكلهم من ولد «إبراهيم» عليه السلام.

وقيل: رحمته تحيته، وبركاته فواضل خيره بالخلة والإمامة، ﴿عَلَيۡكُمۡ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِۚ﴾ [هود، الآية: ٧٣] نصب على المدح أو الاختصاص كما ذهب إليه كثير من المعربين.

ثم أضاف «الآلوسي» واستدل بالآية على كراهة الزيادة في التحية على: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، وروي ذلك عن غير واحد من الصحابة رضي الله عنهم. أخرج البيهقي في الشعب عن ابن عمر رضي الله عنهما أن رجلاً قال له: سلام عليك ورحمة الله وبركاته ومغفرته، فانتهزه ابن عمر، وقال: حَسْبُكَ ما قال الله تعالى.

وأخرج عن ابن عباس أن سائلاً قام على الباب، وهو عند «ميمونة» فقال: السلام عليكم أهل البيت ورحمة الله وبركاته وصلواته ومغفرته، فقال: انتهوا بالتحية إلى ما قال الله سبحانه.

وفي رواية عن عطاء قال: كنت جالساً عند ابن عباس، فجاء سائل فقال: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ومغفرته ورضوانه، فقال: ما هذا السلام؟ وغضب حتى احمرت وجنتاه، إن الله تعالى حَدَّ للسلام حَدًّا، ثم انتهى ونهى عما وراء ذلك، ثم قرأ ﴿رَحۡمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيۡكُمۡ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِۚ﴾ [هود، الآية: ٧٣].

﴿إِنَّهُۥ حَمِيدٞ مَّجِيدٞ﴾ [هود، الآية: ٧٣] قال أبو الهيثم: تحمد أفعاله، وفي

«الكشاف» أي: فاعل ما يستوجب به الحمد من عباده، ففعيل بمعنى مفعول، وجَوَّز «الراغب» أن يكون ﴿حميد﴾ هنا بمعنى (حامد)، ولعل الأول أولى، و﴿مجيد﴾ كثير الخير والإحسان، وقال ابن الأعرابي: هو الرفيع، يقال: مجد كنصر وكرم مجداً ومجادة أي كرم وشرف، وأصله من مجدت الإبل إذا وقعت في مرعى كثير واسع، وقد أمجدها الراعي إذا أوقعها في ذلك، وقال الأصمعي: أمجدت الدابة إذا أكثرت علفها، وقال الليث: أمجد فلان عطاءه ومجده إذا كثره، ومن ذلك قول أبي حية النميري:

تزيد على صواحبها وليست (بماجدة) الطعام ولا الشراب

أي ليست بكثيرة الطعام ولا الشراب، ومن أمثالهم: في كل شجر نار، واستمجد المَرْخُ والعَفَار، أي استكثر من ذلك، وقال الراغب: أي تحرى السعة في بذل الفضل المختص به، وقال ابن عطية: مجد الشيء إذا حسنت أوصافه.

والجملة على ما في الكشف تذييل حسن لبيان أن مقتضى حالها أن تحمد مستوجبَ الحمد المحسن إليها بما أحسن وتمجده إذ شرفها بما شرف، وقيل: هي تعليل لما سبق من قوله سبحانه: ﴿رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ﴾ [هُود، الآية: ٧٣][(١)].

وتحققت البشرى، ووضعت «سارة» رضي الله عنها ولدها «إسحاق بن إبراهيم» عليه السلام، وعمت أهل البيت الفرحة بعد طول انتظار.

وكانت «سارة» قد وهبت «هاجر» إلى زوجها «إبراهيم» لمعرفتها بشدة حبه للولد الذي حرمت منه، فلما أتى «إبراهيم»، «هاجر» حملت، ثم ولدت له «إسماعيل بن إبراهيم» عليه السلام.

قال أبو جعفر: وكانت «هاجر» جارية ذات هيئة، فوهبتها «سارة» لإبراهيم، وقالت: إنى أراها وضيئة فخذها لعل الله يرزقك منها ولداً، وكانت «سارة» منعت الولد فلا تلد لإبراهيم حتى أَسَنَّت، وكان «إبراهيم» قد دعا الله أن يهب له من الصالحين، وأُخَرِّتِ الدعوة حتى كبر «إبراهيم» وعقَمت «سارة»، ثم إن «إبراهيم» وقع على «هاجر» فولدت له «إسماعيل» عليه السلام.

(١) روح المعاني (١٢/١٠٢).

وتابع «أبو جعفر» قوله: حدثنا ابن حميد، قال: حدثنا سلمة، قال: حدثني ابن إسحاق، عن الزهري، عن عبد الرحمٰن بن عبد الله بن كعب بن مالك الأنصاري، قال: قال رسول الله ﷺ: **«إذا فتحتم مصر فاستوصوا بأهلها خيراً، فإن لهم ذِمَّةً ورحماً»**.

حدثنا ابن حميد، قال: حدثنا سلمة، قال: حدثني ابن إسحاق، قال: سألت الزهري: ما الرحم التي ذكر رسول الله ﷺ لهم؟ قال: كانت «هاجر» أم «إسماعيل» منهم، فيزعمون ـ والله أعلم ـ أن «سارة» حزنت عند ذلك على ما فاتها من الولد حزناً شديداً، وقد كان «إبراهيم» خرج من مصر إلى الشام، وهاب ذلك الملك الذي كان بها، وأشفق من شره حتى قدمها، فنزل السَّبْع من أرض فلسطين، وهي برية الشام، ونزل «لوط» بالمؤتفكة، وهي من السَّبْع على مسيرة يوم وليلة، وأقرب من ذلك، فبعثه الله ﷺ نبياً، وأقام «إبراهيم» فيما ذكر لي بالسَّبْع، فاحتفر به بئراً، واتخذ به مسجداً، فكان ماء تلك البئر مَعِيناً طاهراً، فكانت غنمه تردها، ثم إن أهلها آذوه فيها ببعض الأذى، فخرج منها حتى نزل بناحية من أرض فلسطين بين الرملة وإيليا، ببلد يقال له «قَطٌّ» أو «قِطٌّ» فلما خرج من بين أظهرهم نضب الماء فذهب، واتبعه أهل السبع، حتى أدركوه وندموا على ما صنعوا، وقالوا: أخرجنا من بين أظهرنا رجلاً صالحاً، فسألوه أن يرجع إليهم، فقال: ما أنا براجع إلى بلد أخرِجْت منه. قالوا له: فإن الماء الذي كنت تشرب منه، ونشرب معك منه قد نَضِبَ فذهب، فأعطاهم سبع أعنز من غنمه، فقال: اذهبوا بها معكم، فإنكم لوقد أوردتموها البئر، قد ظهر الماء، حتى يكون معيناً طاهراً كما كان، فاشربوا منها، فلا تغترفَنَّ منها امرأة حائض، فخرجوا بالأعنز، فلما وقفت على البئر ظهر إليها الماء، فكانوا يشربون منها وهي على ذلك، حتى أتت امرأة طامِث، فاغترفت منها، فنكص ماؤها إلى الذي هو عليه اليوم، ثم ثبت[1].

وذكر الحافظ ابن كثير في البداية والنهاية: قال أهل الكتاب: إن «إبراهيم» عليه السلام سأل الله ذرية طيبة، وأن الله بشَّره بذلك، وأنه لما كان لإبراهيم

(١) تاريخ الطبري (١/٢٤٧، ٢٤٨).

ببلاد المقدس عشرون سنة، قالت «سارة» لإبراهيم عليه السلام: إن الرب قد حرمني الولد، فادخل على أمتي هذه لعل الله يرزقني منها ولداً.

فلما وهبتها له دخل بها «إبراهيم» عليه السلام، فحين دخل بها حملت منه، قالوا: فلما حملت ارتفعت نفسها وتعاظمت على سيدتها، فغارت منها «سارة» فشكت ذلك إلى «إبراهيم» فقال لها: افعلي بها ما شئت، فخافت «هاجر» فهربت، فنزلت عند عين هناك، فقال لها ملك من الملائكة: لا تخافي فإن الله جاعل من هذا الغلام الذي حملتِ خيراً، وأمرها بالرجوع، وبشرها أنها ستلد ابناً وتسميه «إسماعيل»، ويكون وحش الناس ـ أي: يمشي وحده ليس معه أحد ـ، يده على الكل ويد الكل به، ويملك جميع بلاد إخوته، فشكرت الله عز وجل على ذلك.

وهذه البشارة إنما انطبقت على ولده «محمد» صلوات الله وسلامه عليه، فإنه الذي سادت به العرب، وملكت جميع البلاد غرباً وشرقاً، وآتاها الله من العلم النافع والعمل الصالح ما لم تُؤتَ أمة من الأمم قبلهم، وما ذاك إلا بشرف رسولها على سائر الرسل، وبركة رسالته، ويُمْن بشارته، وكماله فيما جاء به، وعموم بعثته لجميع أهل الأرض.

ولما رجعت «هاجر» وضعت «إسماعيل» عليه السلام.

وقالوا: وولدته ولإبراهيم من العمر ست وثمانون سنة قبل مولد «إسحاق» بثلاث عشرة سنة، ولما ولد «إسماعيل» أوحى الله إلى «إبراهيم» يبشره بإسحاق من «سارة»، فخرَّ لله ساجداً، وقال له: قد استجبت لك في «إسماعيل»، وباركت عليه وكثَّرته ونَميَّته جداً كثيراً، ويولد له اثنا عشر عظيماً، وأجعله رئيساً لشعب عظيم، وهذه أيضاً بشارة بهذه الأمة العظيمة، وهؤلاء الاثنا عشر عظيماً هم الخلفاء الراشدون الاثنا عشر المبشر بهم في حديث عبد الملك بن عمير، عن جابر بن سَمُرَة، عن النبي ﷺ، قال: **«يكون اثنا عشر أميراً»**، ثم قال كلمة لم أفهمها، فسألت أبي ما قال؟ قال: **«كلهم من قريش»** أخرجاه في الصحيحين.

وفي رواية: **«لا يزال هذا الأمر قائماً»**.

وفي رواية: **«عزيزاً حتى يكون اثنا عشر خليفة كلهم من قريش»**. فهؤلاء

منهم الأئمة الأربعة: «أبو بكر» و«عمر» و«عثمان» و«علي»، ومنهم «عمر بن عبد العزيز» أيضاً، ومنهم بعض بني العباس.

وليس المراد أنهم يكونون اثني عشر نسقاً، بل لا بد من وجودهم.

وليس المراد الأئمة الاثني عشر الذين يعتقد فيهم الرافضة الذين أولهم «علي بن أبي طالب» وآخرهم المنتظر بسرداب سامرا، وهو «محمد بن الحسن العسكري» فيما يزعمون، فإن أولئك لم يكن فيهم أنفع من «علي» وابنه «الحسن بن علي» حين ترك القتال وسلم الأمر لمعاوية، وأخمد نار الفتنة، وسَكَّن رحى الحروب بين المسلمين، والباقون من جملة الرعايا لم يكن لهم حكم على الأمن في أمر من الأمور، وأما ما يعتقدونه بسرداب سامرا فذاك هوس في الرؤوس، وهذيان في النفوس، لا حقيقة له ولا عين ولا أثر.

والمقصود أن «هاجر» عليها السلام لما ولد لها «إسماعيل» اشتدت غيرة «سارة» منها، وطلبت من «الخليل» أن يغيب وجهها عنها، فذهب بها وبولدها فسار بهما حتى وضعهما حيث مكة اليوم.

ويقال: إن ولدها كان إذ ذاك رضيعاً، فلما تركهما هناك وولى ظهره عنهما، قامت إليه «هاجر» وتعلقت بثيابه، وقالت يا «إبراهيم!» أين تذهب وتدعنا ههُنا وليس معنا ما يكفينا؟ فلم يجبها.

فلما ألحّت عليه وهو لا يجيبها، قالت له: آللهُ أمرك بهذا؟ قال: نعم، قالت: فإذاً لا يضيعنا.

وقد ذكر الشيخ «أبو محمد بن أبي زيد» رحمه الله في كتاب «النوادر» أن «سارة» تغضبت على «هاجر» فحلفت لتقطعَنَّ ثلاثة أعضاء منها، فأمرها «الخليل» أن تثقب أذنيها، وأن تخفضها فتبر قسمها.

قال السهيلي: فكانت أول من اختتن من النساء، وأول من ثقبت أذنها منهن، وأول من طوَّلت ذيلها(١).

---

(١) البداية والنهاية (١/ ١٧١، ١٧٢).

ونقل «أبو جعفر الطبري» في تاريخه: ماتت «سارة» وهي ابنة مائة وسبع وعشرين سنة[١].

وكان عمرها يوم وضْعِ ولدها «إسحاق» تسعين سنة، وعمر زوجها «إبراهيم» قد بلغ عشرين ومائة سنة.

وقد ذكر صاحب «تاريخ مدينة دمشق»[٢] أن «إبراهيم» عليه السلام و«سارة» رضي الله عنها موكلان برعاية أطفال المسلمين في الجنة لحديث «أبي هريرة» رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «**أولاد المسلمين في جبل في الجنة يكفلهم «إبراهيم» و«سارة»، فإذا كان يوم القيامة دفعوهم إلى آبائهم**»، فيا لها من مكرمة عظيمة امْتَنَّ الله تعالى بها عليهما، وما أرفعه من شرف!

ونقل ابن عساكر، عن ابن إسحاق: أن «إسحاق» عليه السلام، قد أشبه أباه «إبراهيم» عليه السلام فقال: كان «إسماعيل» بكر «إبراهيم» وأكبر ولده، فلما ولدت «سارة» لإبراهيم «إسحاق»، فذكر لي بعض أهل الكتاب أنها لما ولدت، جعل الكنعانيون يقولون: ألا تعجبون لهذا الشيخ ولهذه العجوز؟ وجدا صبياً لقيطاً فأخذاه، يزعمان أنه ولدهما، وهل يلد مثلها من النساء؟ فكَوَّن الله صورة «إسحاق» على صورة «إبراهيم» حتى لا يراه أحد إلا قال: والله إنه لمن الشيخ[٣].

وذكر الإمام القرطبي في تفسيره أنه كان بين البشارة بإسحاق عليه السلام وبين الولادة سنة.

وقالت «سارة» رضي الله عنها لما بشرت بإسحاق: كيف ألد وقد بلغت السن التي لا يلد من كان قد بلغها من الرجال والنساء، وهذا زوجي شيخاً كبيراً لا يولد لمثله؟ إن هذا الذي بشرتمونا به لشيء عجيب مخالف لسُنَنِ الله التي سلكها في عباده، وقد ذكر (المراغي) عند تفسيره لهذه الآية (٧٢) من سورة هود[٤].

---

(١) تاريخ الطبري (١/ ٢٤٩).
(٢) تاريخ مدينة دمشق (تراجم النساء ص ١٣٦).
(٣) تاريخ مدينة دمشق (تراجم النساء ص ١٣٥).
(٤) تفسير المراغي (الآية ٧٢ ـ سورة هود).

وأما عن قول «سارة» رضي الله عنها حين سمعت بشرى الملائكة بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب ﴿قَالَتْ يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِى شَيْخًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾﴾ [هُود، الآية: ٧٢] ، فقد علق الإمام الرازي في تفسيره الكبير، فقال: «لما تكلم الملائكة مع زوجها «إبراهيم» عليه السلام بولادتها استحيت «سارة» وأعرضت عنهم، وصاحت صيحة تعجُّب، كما جرت عادة النساء، حين يسمعن شيئاً من أحوالهن يصحن صيحة معتادة لهذه عند الاستحياء أو التعجب، وقد استبعدت «سارة» أن تلد لوضعين من اجتماعهما فيها: الأول: كبر السِّنِّ، الثاني: العقم. لأنها كانت لا تلد في صغر سنِّها، وعنفوان شبابها، ثم عجزت وأيست فاستبعدت، فكأنها قالت: يا ليتكم دعوتم دعاء قريباً من الإجابة، ظناً منها أن ذلك منهم كما يصدر من الضيف على سبيل الإخبار من الأدعية[(١)].

وكان «إبراهيم» عليه السلام أحد الرسل الكرام الذين وصفهم الله تعالى في كتابه العزيز بأنهم أولو العزم حيث قال: ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾ [الأحقاف، الآية: ٣٥] وقد اختلف في عددهم وأسمائهم، فقال الجلال السيوطي رحمه الله: إن أصحها القول بأنهم خمسة، هم: «نوح» و«إبراهيم» و«موسى» و«عيسى» هؤلاء الأربعة ونبينا صلى الله عليه وسلم وعليهم أجمعين، وقد ضمهم هذا البيت[(٢)]:

أولو العزم نوحٌ والخليلُ الممجَّدُ ... وموسى وعيسى والحبيب محمَّدُ

وجاء في «الطبقات الكبرى» لمحمد بن سعد، عن عكرمة، قال: كان «إبراهيم خليل الرحمٰن» عليه السلام يكنى: «أبا الأضياف»[(٣)]، ومن قصيدة للشيخ عبد الغني النابلسي، قال:

أبو الضيفان إبراهيم قصدي ... خليل الله ذو المجد الأثيلِ
جميع الأنبياء إليه تُنْمَى ... ويفخر فيه جيل بعد جيلِ
عظيم القدر أوَّاه حليمٌ ... وثيق القلب بالرب الجليلِ
وأسرار الخليلِ هناك لاحت ... فأذهلت الخليلَ عن الخليلِ

---

(١) انظر التفسير الكبير للرازي (٢٨/ ١٨٤، ١٨٥).
(٢) انظر تفسير روح المعاني (٢٦/ ٣٥).
(٣) الطبقات الكبرى (١/ ٤٧).

وكفى «سارة» من الفخر أن تكون حليلة خليل الرحمٰن عليه السلام، وأم الأنبياء، فقد أنجبت «إسحاق» عليه السلام، ثم ولد له «يعقوب» عليه السلام، ثم ولد له «يوسف» عليه السلام.

وبعد أن مَنَّ عليها العليم العلَّام، وحقق لها أغلى الأحلام، بإنجابها لإبراهيم الولد الذي تمناه، فقد آن لها أن تستريح.

وعلى أرض الخليل في فلسطين، أتاها هاذم اللذات، ومفرق الجماعات، يدعوها إلى لقاء الله، الذي طالما لهج لسانها بذكراه، وأزجت إليه أسمى المناجاة وكان إلى جانب سَريرها، وهي تودع الحياة، قرة العين وحبة الفؤاد، حبيبها «إبراهيم» وفِلْذَة كبدها «إسحاق» عليهما السلام، وهما لا يكفان عن الدعاء لها، ومدامعهم تفيض بأغزر العبرات، وأما عين «سارة» الموجودة على أرض الخليل فقد تدفَّق ماؤها العذب، وكأنها تود إظهار حزنها على الراحلة الغالية، ويحسن أن نختم سيرتها العطرة بهذه الأبيات للشيخ النابلسي:

بدت للعين أنوار الخليل   وعمَّت رحمة الرب الجليلِ
وإن بعين حلحول عيوناً   لنا قرَّت لدى ذاك السبيلِ
وجئنا عين «سارة» فاستقينا   جميعاً من زلال سلسبيلِ

رحمها الله تعالى، وجزاها بخير ما جزى عباده الصالحين.